# تاريخ العمارة الاسلامية بين الاستمراريه والتحقيب

د. هاني محمد الجواهرة

كلية العمارة والتخطيط - جامعة الملك فيصل

***The History Of Islamic Architecture: Comtinuity Versus Chronological Categorisation***

***ABSTRACT***

The history of Islamic architecture is divided into categories (periods) according to chronological order, where each category is named after a certain dynasty and where all buildings built in this period are named after that dynasty. But to attribute such buildings as products of that specific period may prove inadequate for deep understanding of a complex matter such as that of Islamic architecture. The focus of this paper is on the relevance of studying the history o Islamic arcitecture according to the well-established chronological categorization of this architecture. The paper examines some of the key issues strongly related to the development of Islamic architecture and highlights some of the shortcomings of this system and influence on our perception and understanding of Islamic architecture.

**ملخص**

عادة ما يتم - عند دراسة تاريخ وتطور العمارة الإسلامية - تقسيم تاريخ هذه العمارة الى حقب زمنية تنسب فيها العمائر الى أسماء الدول واتي تسمى بدورها حسب السلالات الحاكمة التي بنيت في عهدها هذه العمائر. الا أن نسبة هذه العمائر الى فترات معينة وحسب واختزال تطور العمارة الإسلامية الى تواريخ معينة فقط ربما له نواقصه في دراسة موضوع معقد كالعمارة الإسلامية. وهذا هو تماما موضوع هذه الورقة الذي يناقش مدى مطابقة نظام التحقيب ذلك لخصائص العمارة الاسلامية. سوف يتم بايجاز طرح العديد من النقاط الهامة وثيقة الصلة بتاريخ وتطور العمارة الإسلامية التي يعجز التحقيب كنظام لدراسة العمارة الاسلامية علي الاتيان على تفسيرها وبعض المثالب التي يزخر بها هذا النظام وما يتركه ذلك في تصورنا لتاريخ وتطور العمارة الاسلامية.

تاريخ تسلم البحث: 2001/11/4 تاريخ قبول البحث: 2002/3/10

**مقدمة:**

يواجه المتامل في تاريخ وتطور العمارة في العالمين العربي والاسلامي[1] مشكلة فريدة. فمن ناحيه تبدو هذه العمارة على امتداد تاريخها الطويل وكأنها تمثل استمرارية تاريخية في الشكل والموضوع بالرغم من الاختلافات الظاهرة في اشكال البناء واختلاف مرجعياتها التاريخية. ولكن من ناحية اخرى فإن تقسيم هذا التاريخ الى فترات (تحقيبه) تميز كل فترة غيرها بسماتها الخاصة يتعارض مع كثير من الشواهد التي يعج بها هذا التاريخ نفسه والتي تؤكد باستمرار على وجود استمرارية ولفترات طويله من الزمن في شكل و موضوع هذه العمارة يتجاهلها اسلوب التحقيب. والحقيقة ان اسلوب التحقيب ضروري لتشريح ظاهرة ما على حجم العمارة في العالمين العربي والاسلامي في أبعادها الزمانية والمكانية. إلاّ ان اسلوب التحقيب التاريخي الدارج يتخلله عدد من الظواهر تجعل إعادة النظر فيه امرا ضروريا[2].

**اعتماد نظام التحقيب ببعده السياسي فقط يتجاهل الطبيعة المتطورة للعمارة الإسلامية:**

لعل اهم مايميز اسلوب التحقيب هذا هو انه احادي البعد يعتمد اساسا على السرد الكرونولوجي (الزمني) لمجمل احداث التاريخ السياسي الذي مرت به مختلف الدول العربية والإسلامية وبالتالي فإنه يغفل الأبعاد المختلفة الداخلة في تطور العمارة. يستند نظام التحقيب على الخارطة الزمنية (شكل 1) التي تؤرخ وتحقب العمارة في المحيط العربي والإسلامي الى فترات تسمى كل واحدة منها بمؤسس هذه الدولة او تلك وتم في زمن هذه الدولة بناء عدد من العمائر ذات السمات المحددة. ولاضافة مزيد من الدقة على هذا النظام فإنه يلحق به مصطلحات ذات صفات زمنية كأن يقال: عباسي مبكر، عباسي وسيط، عباسي متاخر وهكذا. وبذلك اصبح التحقيب التاريخي للعمارة الإسلاميه سياسيا بالضرورة اكثر منه تحقيبا ياخذ في اعتباراته الأبعاد المتعددة الطبقات المصاحبه لعملية

البناء. ولان الجانب السياسي متداخل بعمق في التاريخين العربي والإسلامي فقد اصبح من الصعب التمييز بين الباعث السياسي، وتلك الاصول المتعددة الطبقات الداخلة في عملية البناء. كما ان تداخل التواريخ في كثير من المناطق وعدم خضوع مناطق اخرى في العالم العربي والإسلامي لنفس المرجعية السياسية المحقبة تلك اوجد نوعا من الازدواجية في نظام التحقيب. كما ان التحقيب في احيان كثيرة ولأسباب مختلفة لاياتي على ذكر العمارة في كثير من المواقع الهامة في العالمين العربي والإسلامي. ان تطور العمارة ليس بالضرورة موازيا للتطورات التي تحدث على الصعيد السياسي. وهكذا فعندما يصبح التحقيب منهجا فإنه يفرض تفسيرات نمطية للتاريخ ويصبح الزاميا بغض النظر عن مجاراته للواقع التاريخي كما حدث بالفعل. ومن هذا المنطلق يبدو ان تاريخ العمارة في العالمين العربي والإسلامي في كثير من جوانبه - كما اسس تبعا لمفهوم التحقيب - هو عبارة عن تجمع لعدد من المباني التي يجمع بينها العامل الزمني فقط.

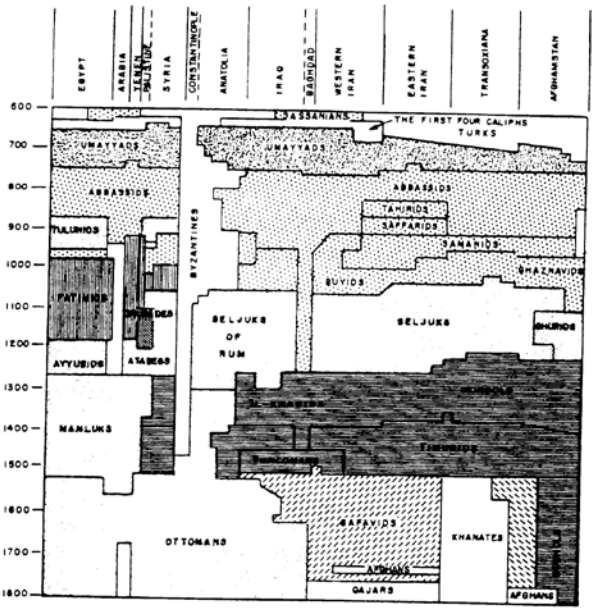


شكل (1) الخارطة الزمنية والجغرافية للعمارة الاسلامية تتجاهل الشطر الغربي من العالم الاسلامي

بطبيعة الحال فإن التحقيب ضروري لتسجيل تاريخ بدايه بناء ما او نهايته او تسجيل الاسماء الاشخاص الذين شاركوا في البناء، او للاسباب والدوافع التي ادت الى بنائه او الى غير ذلك من ذكر لبعض الحقائق التاريخية الخاصة بذلك البناء وهذا هو الجانب العلمي فيه. اما الجانب التاريخي لصيرورة عملية البناء فإنها تبقى مثار تساؤلات عدة. إنه لمن الاهمية بمكان فهم المقصود بالتحقيب التاريخي للعمارة الإسلامية هل هو تحقيب لأنواع البناء، ام لإشكالها، ام للفراغات، ام للإحوال الاجتماعية او الاقتصادية المصاحبه لها، ام للاساليب الانشائيه المتبعه في بنائها ام ماذا؟. فالعمارة كظاهرة اجتماعية هي بالضرورة متعددة الأبعاد وبالتالي فإن التحقيب الراصد لهذه الظاهرة يجب ان ياخذ في الاعتبار الكثير من هذه الأبعاد وان يؤرخ ويحقب العمارة في ضوئها والا فإن قراءتنا لهذه الظاهرة في ظل اسلوب التحقيب تبقى قراءة وصفية. ان تاريخ العمارة في العالمين العربي والإسلامي مليء بمبان اتفق حسب مفهوم التحقيب انها بنيت في فترة زمنيه محددة ونسبت تحديدا اليها. ولكن اصول هذه المباني تعود الى فترات أخرى تسبق هذه الفترة وبالتالي فإنه قد لايكون من المناسب ان توضع هذه المباني ضمن الفترة الزمنية التي حقبت فيها. إن التحقيب كأسلوب متبع لدراسة ظاهرة ما يفترض فيه ان يعمل على تفكيك الظاهرة وتحقيبها في ظل النتائج التي تتوصل إليها عملية التفكيك هذه وليس اخضاع المعطيات المتوفرة عن البناء وهي شحيحة أصلا لنتائج التحقيب الكرونولوجي. وتبدو العمائر التي بنيت في عصور إسلامية مبكرة مثل قصر الحايرالغربي والمشتى وقصري عمرة والاخيضر (شكل 2) وغيرها امثلة واضحة على صعوبة تحقيب هذه المباني وبالتالي صعوبة إخضاعها لأي نوع من الدراسات في ضوء نتائج التحقيب المكونة لها سلفا.

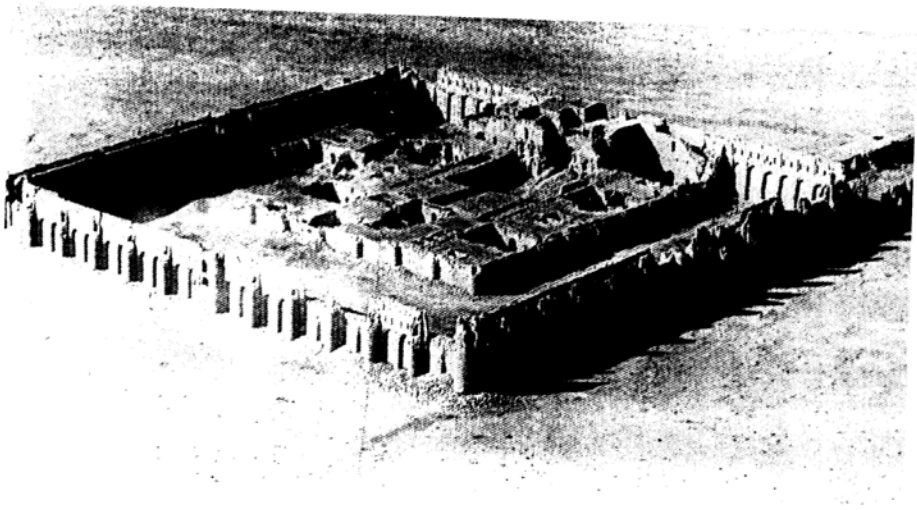

شكل (2) قصر الاخيضر جنوب العراق

## تاصيل الأصول ونظام التحقيب:

وبالرغم من ان تتبع اصول الظواهر المعمارية او ما يعرف بـ ( تاصيل الاصول) ليس من مهمة التحقيب مباشرة الا ان التحقيب بوضعه فواصل زمنية بين عمل واخر بل احيانا في ثنايا العمل الواحد يجعل من الصعب تتبع دراسة هذه الظواهر مما يؤدي الى وضع أنماط مسبقة لشكل هذه العمارة اوتلك تؤثر في فهمنا لتتبع مسار تطورها. والأمثلة على ذلك كثيرة. يعتبر الجامع الأموي في قرطبة (شكل 3) وهو احدى عيون العمارة الاسلامية

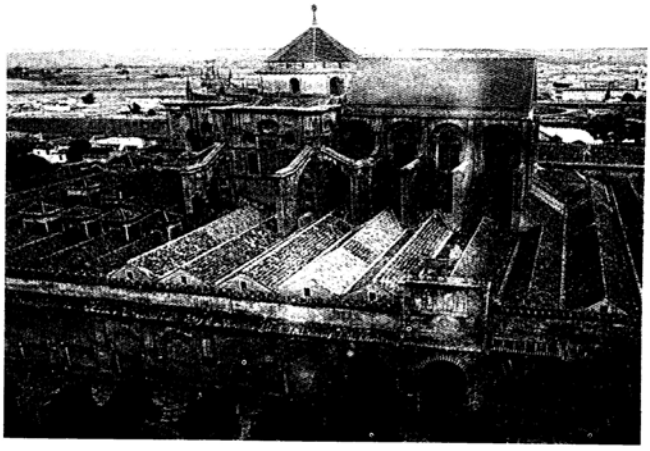

شكل (3) الجامع الاموي في قرطبة بالأندلس

شكل (4) العقود المزدوجة في الجامع الاموي بقرطبة

مثالا واضحا على ذلك. فقد حمل سقف المسجد على نظام مزدوج من العقود (شكل 4) وهونظام لم يشاهد في أي بناء اخر. وبالرغم من ان العقود في كل الاتجاهات المحمولة على دعامات منتشرة في شمال افريقيا الا ان هناك من ينسب هذه العقود الى نظام القناطر الرومانيه[3] التي تحمل المياه عبر اراضي الامبراطورية الرومانية. ومن الدارسين من يرى فيه محاكاة ولكن بأسلوب مختلف للجامع الاموي بدمشق (شكل 5) ولكن هذا الأخير متأثر في نظامه بالنظام الروماني سالف الذكر وبالتالي - واستنادا الى هذا الراي - فإن التاثير الروماني واضح في كلتا الحالتين. غير ان هذا الراي يشوبه بعض الحقائق. فنظام الري هذا مبني بأحجارضخمة مرصوفة تباعا بينما النظام المتبع في الجامع هو عقود من الحجارة محمولة على اعمدة نحتت من الحجارة كما ان الإرتفاع المفرط للقناطر الرومانية واحجامها والمهمة المنوطة بها اصلا وهي حمل الماء الى مسافات بعيدة وليست حمل أسقف

لاتتناسب ومثيلاتها المتبعة في انشاء الجامع الأموي بقرطبة. كل هذه المعطيات تجعل من الصعب تماما ارجاع عمارة المسجد متمثلة في نظام العقود ذلك الى اصول رومانية.

هناك مثال اخر ربما كان اكثر وضوحا. فلقد ارجع بعض المؤرخين اصول المئذنه الى اصول رومانية وبيزنطية. وقد ذهب كريسويل[4] وهو احد اهم مؤسسي تاريخ العمارة الإسلاميه إلى ان المئذنة كعنصر معماري ربما كانت مستوحاة من منارة الاسكندرية كما ذهب غيره الى القول بأن اصل المئذنة تحدر من اواسط اسيا. بالامكان بالطبع وفي منتهى البساطة نقد مثل هذه الطروحات فمنارة الاسكندرية من الضخامة والارتفاع بحيث انه من المتعذر تماما تحويرها الى مئذنة كما ان وظيفتها تختلف جذريا عن وظيفة المئذنة ولذلك فإن كل مايترتب على ذلك الشبه من الصعب القبول به. ان القاء نظرة واحدة ولو بسيطة الى واقع العمارة في ارض الاسلام الاولى (الجزيرة العربية) والتامل فيها مليا لكفيل بتكوين صورة تختلف عما تقترحه مثل تلك الاقتراضات. فالمئذنة او المنارة هي برج، والابراج كانت ومازالت الى اليوم منتشرة في سائر انحاء الجزيرة العربية ويبقى تحويرها الى مئذنة امرا في غاية السهولة بل ان هناك امثلة داخل الجزيرة العربية (شكل 6)

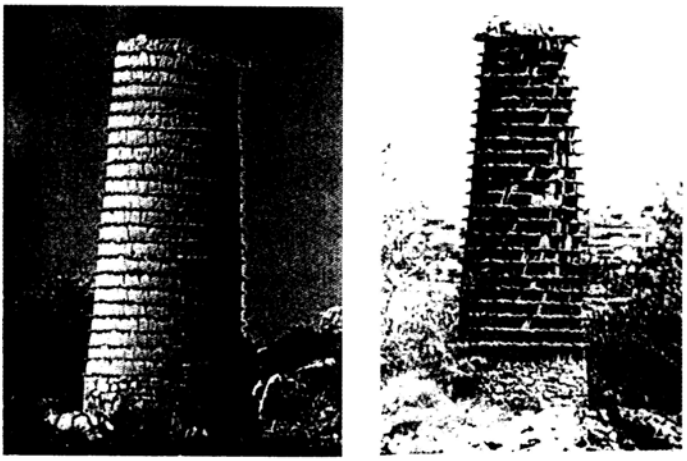

شكل (6) أبراج المراقبة والحماية في العمارة التقليدية في جنوب وغرب الجزيرة العربية

حيث يتم تحوير الابراج الحربية الى مآذن. بعض هذه الامثلة مازال صامدا ومنها ماقد تهدم[6]. وقد سجلت عدسات الرحالة الغربيين الكثير من هذه الابراج. وعلى كل حال فإن مشكلة تاصيل الاصول لكثير من العمائر في العالمين العربي والاسلامي تضرب باعماقها في المنهجية المتبعة لدراسة تاريخ العمارة الاسلامية وهناك الكثير من الامثلة التي تؤدي الى نفس النتيجة.

**اعتماد نظام التحقيب على تاريخ البناء يتجاهل الطبيعة المتحولة للعمارة :**

ان التحقيب قد ساهم بدرجة كبيرة في رسم صورة ثابتة لشيء غير ثابت اصلا (العمارة). واذا ما اضفنا ديناميكية التاريخ وتاثيره المستمر على العمارة وتعاقب الدول والممالك في السياق التاريخي للعرب والمسلمين لأدركنا مدى التناقض الناتج عن اسلوب التحقيب والتحولات المستمرة التي تطرأ باستمرار في العمارة. اما تتبع السمات المعمارية المتشابهة حينا وغير المتشابهة حينا اخر فإن ذلك يبقى مرهونا بالاساس النظري الذي تم فيه تحقيب البناء. ونظرا لأن تاريخ هذا البناء قد يكون عرضة للمساءلة فان التتبع التاريخي لتطور البناء يبقى محل شك ايضا. يصادفنا في هذا السياق طرح التساؤل التالي: ماالذي يجعل مبنى ما ينتمي الى مجموعة من العمائر التي بنيت في حقبة معينة ؟ هل هو تاريخ بنائه ام هي مجموعة خصائصه الاساسية من وظيفة وشكل ومعنى واساليب بناء وعوامل شبه بمبان اخرى او عوامل اختلاف عنها؟ يبدو من خلال الطرح المدرسي لتاريخ العمارة الاسلامية ان تاريخ البناء هو العامل الاساسي في تحقيب البناء ونسبته الى عصره، هذا اذا ماتم التاكد من التأريخ الدقيق لهذا التاريخ. اما الابعاد الاخرى الملتصقة به فيتم تناولها كتطورات لاساليب بناء مختلفة ولاغراض مختلفة لمبان مختلفة تاريخيا وجغرافيا قد تقرب حينا وتبعد احيانا اخرى عن البناء موضع الدرس. ونظرا لغياب بعض الحقائق التاريخية ووجود فجوات في تتبع اصول البناء يحدث عادة نوع من

الافتراض الذي قد يصيب تارة وقدلايصيب تارة اخرى وبالتالي فإن النتائج المتوخاة من وراء ذلك تبقى ذات طبيعة افتراضية.

بطبيعة الحال فإن دراسة تاريخ أي ظاهرة انسانية مرتبطة اساسا بدراسة التاريخ نفسه. الا ان هذا التاريخ ولأسباب يطول الحديث عنها مازال يكتنفه الكثير من الضبابية وبالتالي فإن النتائج المتوخاة من الدراسات ذات الطبيعة التاريخية ستكون مرهونة بالنتائج التي تتمخض عنها القراءات التاريخية المبنية على المعارف الحقيقية بعيدا عن الاعتبارات المؤثرة الاخرى. واذا كانت العمارة هي انعكاس لعدد من الظواهر الاجتماعية فإنه من الاولى التاريخ لهذه الظواهر ومن ثم تاريخ انعكاسها في العمارة. ونظرا للصعوبات الجمة التي تكتنف البحث التاريخي المعمق فقد اتسمت بعض الدراسات[7] لتاريخ العمارة الاسلامية بالطابع العملي والذي يرى انه لايجب دراسة الاعمال او الاثار الفنية مباشرة ولكن دراستها في ظل التاريخ المتعدد الطبقات الذي انشئت فيه هذه الاعمال.

**الزخارف المعمارية والخط العربي كمواضيع مشروعة للتحقيب:**

هذا عن الزمن كموضوع مباشر للتحقيب ولكن ماذا عن المكونات الاخرى للعمارة باعتبارها ايضا مواضيع مباشرة للتحقيب؟ تتميز العمارة في محيطها العربي والاسلامي بكثرة زخارفها ( شكل 7) التي تاتي في اشكال عدة. وبالرغم من ذلك فإن الزخرفة كمنظومة فنون بصرية متكاملة لم تاخذ نصيبها الذي تستحقه من التحقيب على المستوى التاريخي الصرف اذ ان معظم الاساليب التي تتناول الزخارف المعمارية تركز على الاسلوب الوصفي لها، ناهيك عن ان تحقيبها على مستوى المعنى والاسلوب وعلاقتها بمثيلاتها في الفنون التي عادة ماتوصف بانها فنون صغرى كالحرف اليدوية من فخار واسلحة وسجاد ومنمنمات وفنون الكتاب وغير ذلك أمر لم يتم تناوله بالتفصيل. ونظرا لان

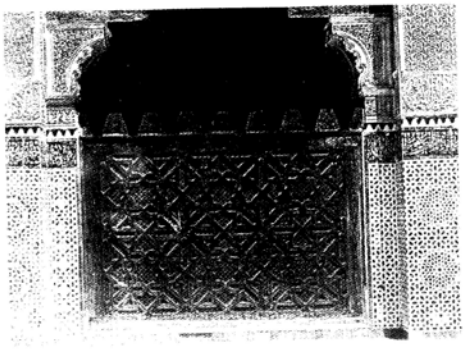

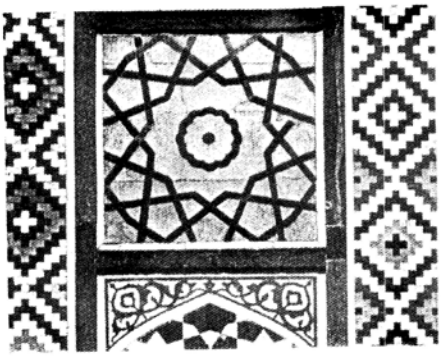

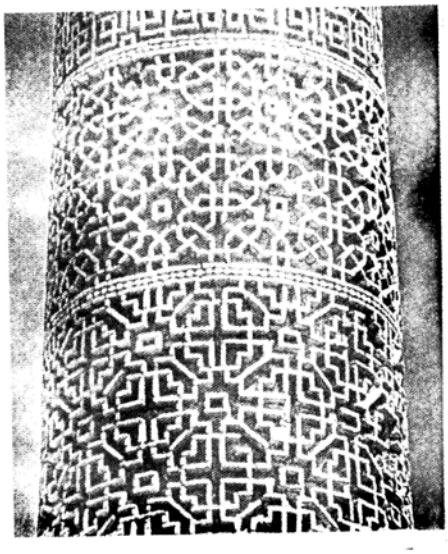

شكل (7) أنماط زخرفية لعمائر مختلفة بأساليب مختلفة في أماكن مختلفة من العالم الاسلامي

الكثير من المباني في العالمين العربي والاسلامي تتسم ببساطة متناهية في الشكل مما يدفع بالزخرفة لان تكون اهم عنصر في البناء، الا انه وبالرغم من ذلك فإن الاهتمام ينصب اكثر على التحقيب التاريخي للبناء وليس على الزخرفة و التحولات الطارئة عليها من فترة لاخرى كموضوع اساسي في البناء.

ومايقال عن الزخرفة ينطبق كذلك على الخط. فعندما يتم تناول الخط العربي[8] في العمارة بالدراسة ( شكل 8) فإنه يعامل كنوع من الزخرفة وربما كان لغلبة النزعة الزخرفية للخط دور في ذلك الا ان الخط العربي ليس زينة بصرية فقط ولكنه رسالة تحمل وراءها معاني عدة. ولنا ان نتصور النتائج المترتبة على الدراسات التي تتناول الخط ليس فقط كموضوع للتحقيب التاريخي للخط في حد ذاته ولكن بارتباطه بالبناء الذي يزينه .ان من شان ذلك ليس فقط ان يساعد على التحقيب الدقيق للبناء وللرسالة التي يحملها الخط في ثناياه ولكن ايضا للتحولات السياسية والاجتماعية التي صاحبت الحقبةالتي تم البناء بها نظرا لان العبارات الخطية

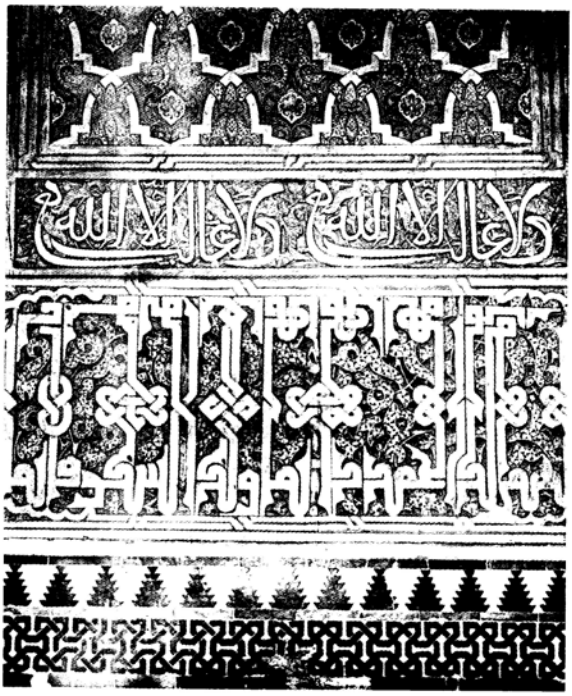

شكل (8) عبارات خطية كتبت باقلام مختلفة تنتمي الى عصور مختلفة

كثيرا ماكانت تختار بعناية تبعا للظروف السائدة ابان الحقبة المعنية. وفي حقيقة الامر ونظرا لان الخط العربي باعتباره فنا يخترق كافة الاوساط الفنية في العالم العربي و الاسلامي وليس مقتصرا على العمارة فقط، اضافة للطبيعة الاعلامية للخط وللمعاني الثقافية المتعددة التي يحملها فإن غياب الدراسات[9] التي تتناول تكوين الخط وتطوره وعلاقته بالعمارة خارج نطاق التحقيب قد ساهم في غياب واحد من اهم مصادر التعرف على نواح عدة في العمارة وكذلك في كافة الفنون الاخرى. ومن المعروف ان الخط العربي يجلب معه فنون الكتاب من خط ومنمنمات وفنون الانسجة المطرزة والحالة الاجتماعية لمقتنيها وكذلك السجاد. وهكذا ففي ازدهار فكرة التحقيب التاريخي انزوت هذه المكونات بالرغم من اهميتها الى الظل. وما ينطبق على الزخارف المعمارية والخط العربي ينطبق كذلك على اساليب الانشاء ايضا.

### الفراغ المعماري واهميته في دراسة تاريخ العمارة:

بالامكان الاسترسال في ذكر المجالات التي يحجم التحقيب بمفهومه الكرونولوجي عن الخوض فيها و يبقى الفراغ هدفا اساسيا للعمارة قديما وحديثا. ولكن وبالرغم من اهمية التعرف على الفراغ و تطوره الا انه لم ينل الاهتمام الذي يستحقه. فما زال من غير

الواضح سبب احجام الدراسات عن الخوض في دراسة طبيعة الفراغ المعماري في العالمين العربي والاسلامي. وربما ترسخ لدى البعض ان العمارة في العالم العربي والاسلامي لاتولي الفراغ الاهمية التي يستحقها ويستدل على ذلك بأن كثيرا من المباني في هذين العالمين عبارة عن تذكارات صلدة لاتحتوي على فراغات لسكنى الانسان. وهناك من يرى ان الفراغ في العمارة هو من البساطة في الشكل بحيث انه من الممكن الاحاطة به والتعرف عليه من من خلال وصف مبسط للبناء[10]. وهناك فريق ثالث يذهب الى ان الفراغ في العمارة مرتبط بالنسيج العمراني الذي يعتبر هذا الفراغ امتدادا له. ان التطور المورفولوجي والتيبولوجي للفراغ في العمارة امر في منتهى الاهمية. وهو ما لا يحظى بنصيب وافر في ظل اتباع اسلوب التحقيب.

تتسم العمائر التقليدية عموما والعمارة في العالمين العربي والاسلامي بمثال بارز عليها باهتمامها بالبعد الانساني وربما كانت تلك اهم سمة فيها. فالانسان هو محور اهتمام هذه العمارة وفي ظل هذا الوضع تبدو الدراسات الانثروبولوجية مناسبة تماما لفهم الكثير من اسرار العمارة في هذه المجتمعات ولكن وبالرغم من ذلك فإن هذا النوع من الدراسات لم يحظ بنصيبه وافرا في ظل المناهج التي تحقب العمارة. الا ان هذا لايعني غياب بعض الدراسات في هذا الجانب ولكنها تبقى منفصله عن العمارة وبالتالي فإنه من المهم توظيف هذه الدراسات الانثروبولوجية لإعادة رسم تاريخ العمارة من جديد. ان الانفصال بين الدراسات الانثروبولوجية والعمارة العائد اصلا الى طبيعة كل منهما والى التصورات المسبقة لكل منهما عن الاخر قد ساهم في إغفال هذا الجانب الحيوي في تناول هذه الظاهرة مما ادى الى اغفال الجوانب الاساسية والاجتماعية البالغة الاهمية في نشوء وتطورالعمارة.

ويبدو واضحا في ضوء هذه المعطيات ان هناك حاجة لايجاد انواع مختلفة من التحقيب وليس نوع واحد وهذا ماحدا ببعض الدارسين الى التمييز بين المؤرخ السياسي

والمؤرخ الاجتماعي. ولعل الاهتمام بالتاريخ السياسي قد جاء على حساب التاريخ الاجتماعي الذي مازال وليدا في تناوله للمجتمعات العربية والاسلامية.وهذا ايضا ماحدا ببعض الدارسين[11] لفن العمارة الاسلامية الى التمييز بين الزمن المطلق والزمن النسبي. فالزمن المطلق قد يمتد لقرون او عقود او سنوات بعد تكون الفن الاسلامي وهو زمن من الممكن تعريفه بدقة من خلال احداث تاريخية معينة. بينما الزمن النسبي يحدد باللحظة التي يتم فيها قبول ثقافة ما وتحولها بالتغيرات التي من الممكن تحديدها. ومن الواضح من هذا التصنيف سيطرة الحدث السياسي على فكرة التحقيب في الزمن المطلق بينما تعطى الاولولية في الزمن النسبي للتغيرات العميقة البطيئة نسبيا التي تحدث في العمارة وهذا ما يحتم دراستها في ضوء اساليب منهجية اخرى.

**الطبيعة العضوية للعمارة الاسلامية ونظام التحقيب:**

كما ان التحقيب يصطدم بعقبة ناتجة عن واحدة من اهم الصفات المميزه للعمارة في المحيط العربي والاسلامي. اذ يبدو تطور هذه العمارة وكأنه قد نحا منحى عضويا[12] والمقصود بالمنحى العضوي هو غياب التحولات الاساسيه في العمارة التي تحدث فجأة تحت تاثير تاريخي معين و التي تميز كل حقبة عن الحقبة التي تليها او تسبقها. صحيح ان هناك بعض الفروق التي تميز فترة عن الاخرى ولكن هذه الفروقات ليست من الوضوح او الضخامة بالقدر الكافي الذي يؤهلها لأن تكون عمارة حقبة متميزة عن غيرها. وهذا ماحدا ببعض الدارسين[13] للقول بافقية العمارة الاسلامية: "ففي الفن الاسلامي هناك مستويان الاول عمودي والاخر افقي. يتمثل المستوى العمودي في ميراث الامم الاسلامية قبل مجيء الاسلام اليها. اما الافقي فهو نتيجة لصهر هذه الفنون في بوتقة واحدة تحت لواء الاسلام." وهكذا اصبح هناك وحدة افقية الاتجاه تميز العمارة الاسلامية في كافة مراحل تطورها ومن الواضح ان هذه الوحدة التي عادة ماتوصف بها العمارة الاسلامية

هي نتيجة للتطور العضوي الطويل الامد. لذلك فإنه يغيب عن هذا التطورتلك التحولات النوعية في اساليب البناء. ان العمائر ذات الطابع العضوي تستغرق اوقاتا اطول من التطور يصعب معها وضع حدود فاصلة للمكونات التي أنشأت هذه العمارة ويؤدي ذلك حتما الى صعوبة تحقيب هذه العمارة. وهكذا فإن تحقيب العمارة ذات الطبيعة العضوية اصلا يحيلها الى مجرد تواريخ لأبنية بنيت في ازمنة معينة.

هذا عن عضوية العمارة في بعدها الزمني لكن هناك ابعادا فرعية اخرى لعضوية العمارة. عرف عن العمارة الاسلامية ( شكل 9) التشابه الكبير بين انواع البناء

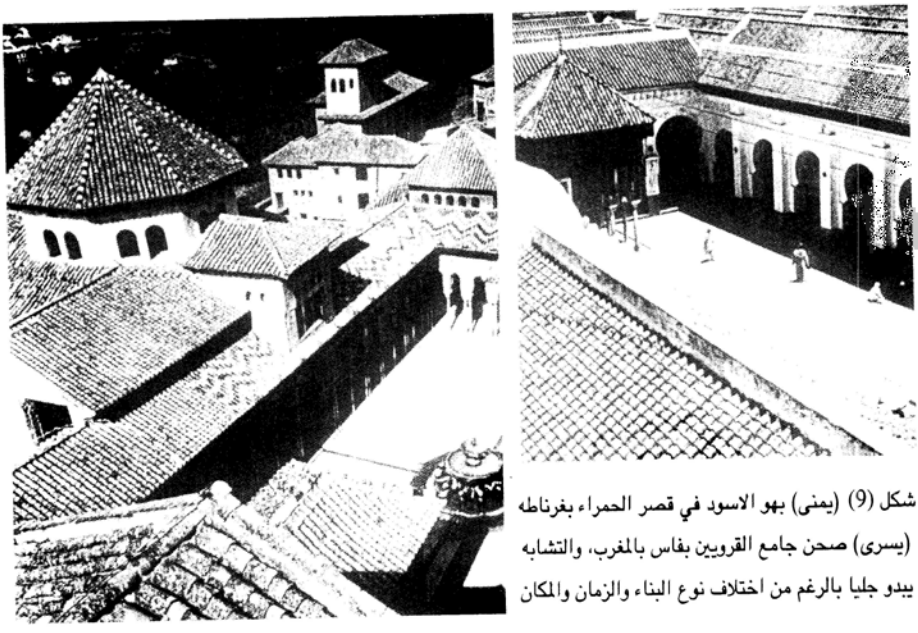

شكل (9) (يمنى) بهو الاسود في قصر الحمراء بغرناطه (يسرى) صحن جامع القرويين بفاس بالمغرب، والتشابه يبدو جليا بالرغم من اختلاف نوع البناء والزمان والمكان

الرئيسية كالمساجد والمدارس والاربطة والخانات مما يجعل من الصعب احيانا التعرف بدقة على نوع البناء نظرا لتشابه عناصره وكثيراما دفع هذا التشابه الى الخلط بين كثير من المباني في الدول العربية و الاسلامية. كما ان الكثير من هذه العمائر ذو طبيعة آنية على مستوى الوظيفة وعلى المستوى الاجتماعي ايضا وهذا مايفسر ازدواجية كثير من العمائر العربية والاسلامية وبالتالي فإن التحقيب لهذه العمائر يصطدم بمهمة تحديد

الغرض الاساسي من انشاء البناء. كما ان الكثير من المباني يطرأ عليها تحولات مستمرة لكي تناسب استخدامات متجددة باستمرار فما ان يتم الانتهاء من بناء معين حتى يتم احداث تغييرات معينة عليه وما ان تنتهي تلك حتى تبدأ تغيرات اخرى وهكذا .وهذا احد مبادىء مايسمى بديمومة العمارة الاسلامية[14]. ان هذه التحولات والعلاقات التيبولوجيه والمورفولوجيه لاتستحوذ على اهتمام التحقيب كمنهج معرفي يبحث في اسباب وطرق حدوث هذه التحولات وانعكاساتها على العمارة.

**العمارة الشعبية ونظام التحقيب:**

تمثل العمارة الشعبيه بعدا آخر للعمارة العربية والاسلامية والعمارة الشعبية هي ابرز تمثيل لعضوية العمارة وتزداد العلاقه بينهما رسوخا اذا ماعرف عن العمارة الشعبية انها بالضرورة ذات طبيعة عضوية. وككل الظواهر الشعبية فإن هذا النوع من العمائر لايستحوذ على الاهتمام الذي يستحقه من قبل المؤرخين بالرغم من ثراء العمارة الشعبية في تعاملها مع كافة الاوجه البيئية والاجتماعية، اذ عادة ماتنزوي العمارة الشعبية في معظم الكتب التي تؤرخ للعمارة الى صفحات قليلة في نهايات الكتب وبقليل من الشروحات البسيطة. تكمن اهمية العمارة الشعبية في انها تعطي ابعادا معرفية اخرى للعمارة لم يتم التعرف عليها عند تناول العمارة المسجلة التي عادة ماتستحوذ على الاهتمام الاكبر. ففي دراسة العمارة الشعبية تسجيل لكثير من اوجه حياة الناس الاجتماعيه والاقتصاديه والفكرية. ان مبدأ التحقيب لاياتي على ذكر العمارة الشعبية لانها خارج موضوع التاريخ السياسي الاحادي البعد. اذ عادة ما ياتي ذكر الامور التي تتخذ من المباني العامة والرسمية التي تم تسجيلها وتحقيبها امكنة لها. اما المباني الشعبية فنادرا ما كانت مسرحا لاحداث هامة ذات علاقه بتاريخ هذه الدولة او تلك ولذلك يتم يتجاهلها. بل و حتى عندما يتم تحقيب اسلوب معين في البناء فإنه لاينظر الى امكانية

وجود اصول ذلك الاسلوب في العمارة الشعبية بل مايتم عادة هو البحث عن اصول ذلك الاسلوب في مبنى بعيد اخر تم تحقيبه قد لايمت للبناء موضع الدراسة بصلة.

ساعد اسلوب التحقيب هذا في وضع حد فاصل بين العمارة المسجلة ( المحقبة) والعمارة الشعبيه الا ان هناك من الدلائل مايشير بقوة الى ان هناك تداخلا فيما بينهما تختلف صوره من مكان لاخر. فكثير من المباني العامة والمسجلة ( المحقبة) انما تقع ضمن نسيج عمراني عادة مايكون متشابكا وبذلك فإن هناك تداخلا مباشرا بين العمارة الشعبية وبعض العمائر المسجله التي تتخللها او ربما كانت امتدادا نوعيا لها. وقد لايكون الفرق بين ماهو شعبي وماهو مسجل سوى اختلاف أحجام الابنية. وقد يكون التداخل على مستوى التقنية المستخدمة في البناء ( شكل 10) او قد يكون في المعنى وقد يكون

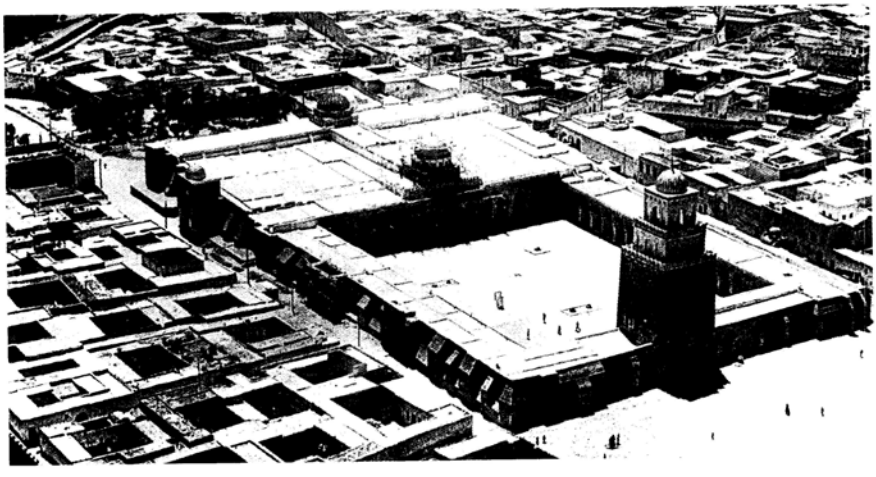

شكل (10) الحائط الخارجي لجامع القيروان بتونس ينتمي في شكله واسلوب بنائه الى العمارة التقليدية

التداخل لغويا. وفي كل هذه الاحوال فإن الحد الفاصل بين شكلي العمارة هذين هو حد شكلي فرضته اساليب التحقيب التي فصلت بين هذا وذاك. ان تمفصل (التعرف على الظروف والوقائع التي تحولت فيها العمارة الشعبية الى رسمية محقبة) العمارة المسجلة والعمارة الشعبيه من شانه الربط بين الحقب التاريخية المختلفة ورسم صورة عضوية

لتطور تاريخ العمارة الذي هو عضوي بالضرورة. وبطبيعه الحال فإن أهميه هذا التمفصل تختلف باختلاف حدة التباين بين الحقب التاريخية المختلفه. وتزداد اهمية هذا التمفصل في العصور الاسلامية المبكرة والعصور الحديثة نظرا لحداثة هذه العمائر بالعمارة الشعبية من جهة ونظرا لاحتكاك هذه العمارة بعمائر اخرى مختلفة عنها كما ونوعا من جهة اخرى. وهكذا فإن اغفال العمارة الشعبيه كنتيجة مباشرة للتحقيب قد فوت الفرصة على الدارسين رؤية مصادر اخرى اثرت في نشوء وتطورالعمارة الإسلامية والتي لو كانت قد اوليت اهتماما ولو بسيطا لتغيرت معرفتنا بالعمارة وتطورها.

**نظام التحقيب والاتساع الجغرافي للعمارة الاسلامية:**

وكنتيجة مباشرة لذلك فإن تاريخ العمارة الاسلامية كما هو مؤسس الان لاياتي على ذكر الكثير من الاقاليم التي ازدهرت فيها العمارة الشعبية اكثر مما ازدهرت العمارة المحقبة . هذه الاقاليم وعمائرها الشعبية كان من الممكن لها ان تؤثر بدرجة او باخرى على معرفتنا بمسار تاريخ العمارة لو تم الالتفات اليها. وتاتي الجزيرة العربية على راس تلك الاقاليم. ادى مفهوم التحقيب بمؤسسي تاريخ العمارة العربي والاسلامي الى الافتراض سلفا وفي عجالة ان الجزيرة العربية لم تزدهر بها فنون بناء كتلك التي ازدهرت في الامبراطوريات الرومانية والبيزنطية والفارسية وبالتالي فإنهم بافتراضهم ذلك غضوا الطرف تماما عن احتمال ولو بسيط في ان تكون بعض جذور العمارة المبكرة في العالم العربي والاسلامي ترجع في اصولها من قريب او بعيد الى شبه جزيرة العرب. فالقول المتكرر بان اصول العمائر الاسلامية وبالذات المبكرة منها ترجع الى اصول رومانية وبيزنطية بالرغم من صحة هذا القول احيانا الا انه في احيان اخرى كثيرة مجاف لبعض الحقائق. صحيح ان هناك عناصراو اساليب بناء مستمدة من الحضارات ماقبل الاسلامية في البلاد حديثه العهد بالاسلام ولكن الروح العربية والاسلامية هي السمة الابرز في هذه

العمائر. لقد تم توطين ما وجده العرب من اساليب معمارية ووظفوه باسلوبهم لكي تواكب الوضع الجديد والحضارة التي بدأت للتو. لقد تم تحوير العناصر واساليب البناء والزخرفة لكي تصبح عربية اسلامية الملامح بالرغم من ان جذورها ذات اصول رومانية، بيزنطية، ساسانية و غير ذلك. وهذه صورة مبكرة للتلاقح بين الحضارات اذ نجحت الثقافة الاسلامية آنذاك في ان تستوعب معطيات الثقافات الاخرى وان تضفي على الارث المعماري المتعدد المشارب في تلك الثقافات طابعها الخاص وان تصهره في بوتقة معمارية واحدة.

هذا عن الحديث عن البناء الواحد كمجموعة مترابطة من العناصر اما انواع البناء فالكثير منها ذو اصل عربي بالفطرة. فمعظم العمائر الاسلامية هي عبارة عن فراغ في الوسط محاط بغلاف تتخلله ابراج او بوابات او دعامات تبعا لنوع البناء. ومن الواضح حسب الاكتشافات الاثريه في جزيرة العرب[15] وفي أطراف بلاد الشام ان هذه الانواع من البناء كانت قد ازدهرت في الجزيرة العربية لاغراض اما دفاعية او سكنية او تجارية. ولذلك فإن هناك استمرارية تاريخية واضحة بين معظم انواع البناء التي عرفت في العصور الاسلامية اللاحقة وتلك التي كانت منتشرة قبل ظهور الاسلام وهو ما لم يأت عليه اسلوب التحقيب بتاتا. ان القاء ( شكل 11) نظرة خاطفة على القلاع الاندلسية -

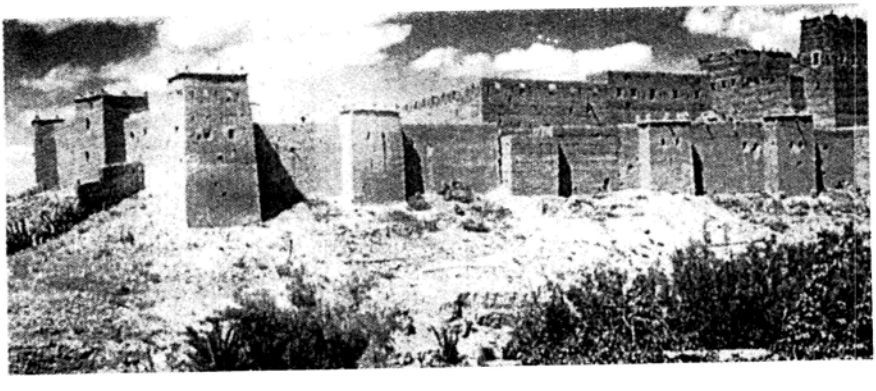

شكل (11) قلعة Banos de la Encina والتي بنيت عام 1986 في الأندلس ويبدو انتمائها الجغرافي للبلاد العربية واضحا

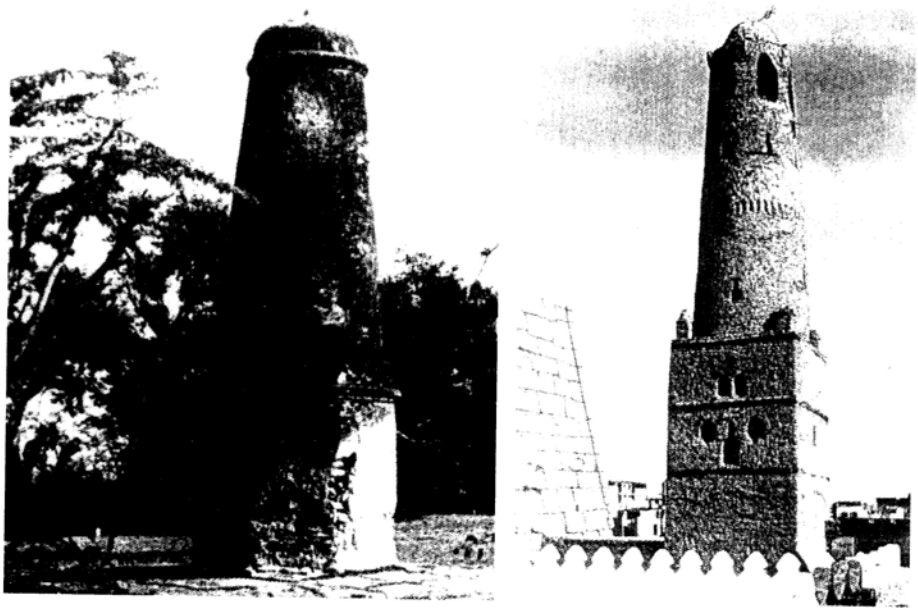

شكل (12) (يمين) برج على الطريق في اقليم جايبور بالهند - (يسار) منارة مسجد ابوالحاج في الاقصر بمصر

بالرغم من البون الجغرافي الشاسع الذي يفصل شبه الجزيرة الايبرية عن شبه الجزيرة العربية – يذكر مباشرة بمثيلاتها في الجزيرة العربية وفي بلاد المغرب العربي بالرغم من اختلاف الزمان الذي بنيت فيه هذه القلاع. وبالامكان اجراء مقارنات مشابهة ( شكل 12) لعمائر مختلفة في اماكن مختلفة من العالم الاسلامي. هذا التلازم في المسببات والاحوال الاجتماعية من جهة والتشابه الدقيق في سمات البنيان من جهة اخرى يدل مرة تلو الاخرى على محدودية اسلوب التحقيب في تفسير ظواهر الشبه المتعددة التي يزخر بها تاريخ العمارة.

واذا كانت الجزيرة العربية لم تلق الاهتمام الكافي لمساهمتها في كتابة تاريخ العمارة فإن الشيء نفسه يقال عن مناطق اخرى كثيرة في العالمين العربي والاسلامي كالساحل الافريقي والبرتغال وشبه القارة الهندية وجنوب شرق اسيا وبالرغم من ان هذه المناطق ع جغرافيا في اطراف العالم الاسلامي الا ان كثيرا من عيون العمارة الاسلاميه قد

ازدهرت على اطراف العالم الاسلامي وبدرجة تفوق مثيلاتها داخل قلب العالم الاسلامي. وبالرغم من ذلك فإن التحقيب كما هو متعارف عليه لايفسر هذه الظاهرة بل لاياتي على ذكرها اصلا. و هذه ظاهرة اخرى تبقى جديرة بالملاحظة والاهتمام.

## العوامل الجغرافية واهميتها في تطور العمارة الاسلامية:

ومما ساعد على ازدهار مفهوم التحقيب هو اعتماد الدراسات التي تتناول العمارة الاسلاميه على علم الاثار.وبالرغم من طابع الحجة الذي يفرضه علم الاثار الا ان الاخذ فقط بالجانب المادي فقط لدراسة تاريخ العمارة يبقي هذا التاريخ رهنا بكل اكتشاف جديد تتغير نتائجه باستمرار . كما ان الارث المعماري في الدول العربيه والاسلامية – على عكس مثيلاته في الاماكن الاخرى – ليس بذلك الموغل في القدم وبالتالي فإن الاعتماد على علم الاثار وحده دون اللجوء الى الدراسات الاجتماعية الموازية له سيضفي مزيدا من الرتابة على هذا التاريخ. كما ان بطء الدراسات الاثارية والوقت الطويل الذي تستغرقه فضلا عن اختلاف التفسيرات التي تعطى لهذه الاكتشافات كل ذلك يسهم بصورة او باخرى في تكريس مفهوم التحقيب.

ويبدو ان العمارة الاسلامية هي ذات طبيعة جغرافية اكثر منها ذات طبيعية تاريخية وبالتالي فإنه من المناسب اتباع اساليب جغرافية لدراستها. وفي ضوء التصور الافقي للعمارة الذي ورد اعلاه فإنه يبدو ان الجغرافيا وليس التاريخ هي التي لعبت الدور الاكبر في نشوء وتطور العمارة لاسيما وان معظم الدول العربية والاسلامية تم فتحها في ظرف مائة وعشرين سنة فقط وهي فترة قصيرة بكل المقاييس في مسيرة تطورالعمارة الاسلامية الذي يربو على اربعة عشر قرنا. كما ان الامتداد الجغرافي الواسع للعالمين العربي والاسلامي وتشابه الحوادث التاريخية التي مرا بها يجعل من البعد الجغرافي امرا اكثر اهمية من البعد التاريخي. ان البعد الجغرافي هو البعد المتحرك في نشاة وتطور العمارة

الاسلامية بينما يمثل البعد التاريخي المتمثل اصلا في الفتوحات الاسلامية وتعاقب الخلافات عليها البعد الثابت وهكذا يمكن ربط العمارة في سائر انحاء العالم الاسلامي. ان الامثلة التي تؤكد على اسبقية الجغرافيا على التاريخ في تطور العمارة الاسلاميه كثيرة. فبالإمكان تقسيم العمارة في العالمين العربي والاسلامي الى كيانات جغرافية متباينة تلعب عوامل المناخ والتبادلات المباشرة بين هذه الاقاليم المتقاربة جغرافيا الدور الحاسم في رسم الخطوط العريضة لهذه العمارة . وبطبيعة الحال فإن البعد الجغرافي يجلب معه كافة العوامل التي تفرضها الجغرافيا من مناخ وطبوغرافيا ومياه وبحار وصحار وانهار وجبال وتاثير كل ذلك في تطور العمارة الاسلامية وهنا تكمن اسرار التطورات الحقيقية التي يزخر بها تاريخ هذه العمارة.

**الخاتمة:**

ختاما، فمازالت معرفتنا بالعمارة الاسلامية تعتمد على نظام التحقيب التاريخي بمفهومه الكرونولوجي لمختلف مراحل تطور العمارة الاسلامية. الا ان الاعتماد على وضع حدود زمنية فاصلة بين فترة واخرى تعني فقط بالتطور الزمني للاحداث السياسية لايفسر كثيرا من الظواهر المصاحبة لتطور هذه العمارة، وبالتالي فإن هناك حاجة ماسة الى الذهاب الى ماهو ابعد من ذلك لسبر البعد المعرفي الاحفوري للعمارة كانعكاس لتاريخ الشعوب العربية والمسلمة على ان يصحب ذلك بالنقد للاسس المعرفية القائمة التي يستند عليها تاريخ العمارة. وربما كانت هناك حاجة ماسة الى نظام تحقيب اخر وربما نظم تحقيب اخرى لاتستند على البعد الكرونولوجي للدول الاسلامية ولكن على تطور العوامل الدفينة الفاعلة في العمارة. ويبقى ذلك مشروعا يستحق الاهتمام.

## ثبت المراجع:


حيان صيداوي، الاسلام وفئوية تطور العمارة العربية، دار المتنبي، بيروت، 1992

احمد عمر الزيلعي، الآثار الاسلامية بمنطقة الباحة: الخلف والخليف،آثارهما ونقوشهما الاسلامية، 1997، الرياض

Al-Jawahrah, Hani, **The Native Architecture of Asir Region in Saudi Arabia,** Edinburgh University, 1996.

Bloom,J.M.M, **Minaret, Symbol of Islam**, Oxford Studies of Islamic Art, VII, Oxford, 1989. P.162

Creswell. K.A.C., **Early Muslim Architecture**, ed. I,1969, Oxford.

Duncan Haldane, **Islamic Bookbinding**, 1983, London

Ernst Diez, A Stylistic Analysis of Islamic Art, **Ars Islamica**, 1938.

Godfrey Goodwin, **Islamic Spain**, 1990, London.

John Hoag, **Islamic Architecture**, 1977, New York, P.35

King, G.R.D., Creswell's Appreciation of Arabian Architecture, **Muqarnas**, VIII,1991.

Michell, **Architecture of the Islamic World**, its history and social meaning, , 1978, London.

Nurha Atasoy, **The Art of Islam**, 1990, P. 91.

Oleg Grabar, **The Formation of Islamic Art**, 1976, New York.
**Alhambra**, 1978, Cambridge, Massachusetts.

Robert Hillenbrand, **Islamic Architecture, Form, Function and Meaning**, 1994. London.
**Islamic Art and Architecture**, 1999, London.

Rustam Mehta, Masterpieces of Indo-Islamic Architecture, 1976, Bombay.

Yassir Tabbaa, The Muqarnas Dome: its origin and meaning, Muqarnas, V.III, 1985.